الفصل الثالث

المقاصد الكبرى

للآيات التي تعرض الخلق والكون

obeikandl.com

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» رواه البخاري.

«إن الله تعالى يعرض الكون في كتابه على النحو الذي أسلفنا: ليتعرف العبد من النظر إليه على ربه وخالقه وعلى صفاته تعالى.

وليكون حجة على وجوب تفرده تعالى بالألوهية والعبادة والطاعة والتشريع.

فيفرد الله تعالى بحقه الخالص.

وليكون حجة على أمر الآخرة وقيام الساعة فيوقن ويستعد ويعمل ويزهد فيما هاهنا.

وليعرف به أصالة الحق وامتداده .. فيوقن بما معه وأن الله تعالى ناصره.

وليأتنس به في عبادته لله تعالى .. هكذا يُعرض وهكذا يتلقاه المؤمن».

obeikandl.com

مقدمة

وردت ـ في مساحة كبيرة من كتاب الله العزيز ـ الآيات التي تعرض خلق الإنسان ومراحل تكوينه ومراحل حياته، والكون من سماوات وأرض وبحار ومن مخلوقاته وكنوزه، ومن جبال وأنهار وبروج ونجوم وأشجار .. وهناك مقاصد هامة جدًا من سوق هذه الآيات لابد من تحديدها ومعرفتها.

* * *

في هذا الفصل أردنا التعرف على المقصود من سوق الآيات التي تعرض مظاهر الخلق والكون لأنها تأتي ضمن سياق الرد على الكفار أو مناقشتهم أو وعظهم ..

وقد لا يفهم البعض الغرض من إيراد هذه الآيات ـ وليس المعنى التفصيلي للآية فقد يدركه ـ حتى أن البعض يظن أن السياق قد قطع وانتقل إلى موضوع آخر .. بينما هو في نفس الشأن يسوق الأدلة فيها ويوضحها للمخاطَبين ويناقشهم ويرد عليهم ..

* * *

وقد أوضحنا أن عرض آيات الخلق والكون في كتاب الله تعالى يهدف إلى عدة مقاصد .. منها:

١- الاستدلال بربوبية الله تعالى على ألوهيته ..

بمعنى أنه كما أنه هو الخالق الرازق فهي إذن المستحق للعبادة وحده؛ فيُحب وحده ويُطاع وحده ويُعظم وحده، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله).

٢- التعرف على الخالق تعالى والاستدلال على وجوده وعلى أسمائه وصفاته من خلال النظر في مخلوقاته تعالى ..

وقد وكان يمكن أن نضع هذا المقصد هو الأول لترتيب المعرفة ثم العبادة ولكن اخترنا تقديم العبادة جريًا على النسق القرآني أن هذه المعرفة مركوزة في الفطرة ويُطالب الناس بموجَبها، ثم كلما زادت المعرفة زاد الخضوع لله تعالى وزادت هيبته في النفوس وطاعته سبحانه وتعالى.

٣- الاستدلال على اليوم الآخر ..

فكما عُرضت هذه الآيات ردًا على المشركين لإبطال شركهم فقد عُرضت كذلك ردًا على منكري البعث.. وذلك بعدة طرق:

الطريقة الأولى: الاستدلال بخلق الإنسان أول مرة على إمكان إعادته ..

الطريقة الثانية: الاستدلال بإنزال الله الماء من السماء وإحياء الأرض به بالنبات وأن هذه عملية إحياء من الموت وعملية إعادة للحياة مستمرة دائمًا ومماثلة لما وعدتم به من البعث ..

الطريقة الثالثة: الاستدلال بخلق ما هو أَوْلَى وأعظم خلقًا من الإنسان ـ الذي يستعظمون بعثه ـ وهو خلق السماوات والأرض.

الطريقة الرابعة: الاستدلال بالحكمة.

الطريقة الخامسة: تعداد ما خلقه الله تعالى في هذه الحياة على أنه نِعَم، وأن هذه النعم تستوجب الشكر، ثم هناك من يشكر ومن لا يشكر؛ فكيف يستويان؟. فلا بد أن يكون للمنعم جزاؤه لكل منهما.

الطريقة السادسة: الاستدلال بعموم القدرة المستفاد من النظر في خلقه تعالى وقدرته الباهرة في خلقه.

الطريقة السابعة: الاستدلال بعموم العلم المستدَل عليه أيضا بهذا الخلق.

* * *

ـ مع الإشارة إلى قاعدة هامة وهي أن القرآن كما يورد البرهان العقلي الباهر للاستدلال فإنه يلحف معه ويُقرن به التخويف والوعظ ليكون الخطاب شاملاً للعقل والوجدان معًا ..

فقد يكون الخلل في افتقاد الاستدلال الصحيح .. كما قد يكون في غفلة القلب وعناده ..

فكان الخطاب في الجانبين لتكون هناك جدية في أخذ الموضوع وتناوله ..

ـ ومع الإشارة كذلك إلى أن كثيرًا من سياقات عرض هذه الآيات تساق للقصدين الأول والثالث .. يعني توحيد الله تعالى في العبادة، والاستدلال على اليوم الآخر.

* * *

٤- المقصد الرابع من ذكر آيات الكون هو: معرفة تعبد الكون لله ومعرفته له وخضوعه .. مع الاستدلال على صحة هذا الدين وصدق الوعد والبشارة بالتمكين القادم له.

٥- المقصد الخامس: هو الإيناس في التعبد لله تعالى وسط كون زاخر ومشغول بالعبودية.

مع ذكر بعض علامات النبوة.

ثم ذكرنا كلمة أخيرة جامعة في هذا الشأن ..

والله تعالى الموفق للحق والصواب..

المقصد الأول

تساق آيات الكون لغرض عرض ربوبية الله تعالى وقدرته للاستدلال بها على وجوب إفراده تعالى بالعبادة والطاعة

فهو الخالق وهو المالك وهو الرازق وهو الذي له المعاد وبيده الملك، وهو الرب القائم على إصلاح خلقه وتربيتهم، وهذا معنى الربوبية ..

وبالتالي فهي أدلة على استحقاقه وحده للعبادة وهذا هو معنى الإله، فالإله هو: المألوه، يعني المعبود المطاع المحبوب المعظَم.

وقد يقر الإنسان بربوبية الله تعالى لكن يشرك معه غيره في العبادة، وعلى هذا كان صراع الأنبياء مع أممهم وليس على مجرد الإقرار بأن الله وحده هو الخالق الرازق فالناس مفطورون على هذا الإقرار، والرسل إنما طالبوا الخلق بموجَب هذا الإقرار بأن يعبدوا الله تعالى وحده ويتركوا عبادة ما سواه وطاعة ما سواه وتعظيم وحب ما سواه، وأن يتركوا التوجه إلى وقصد ما سواه، وإفراده تعالى بهذه الأعمال والتعبدات بلا شريك، وفي هذا الشأن تساق أدلة الربوبية .. فالله يقول: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]، ويقول: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الدخان: ٧-٨]، فالأولى للربوبية والثانية للألوهية المترتبة عليها.

ويحتج الله تعالى على الكفار بمعرفتهم وإقرارهم بربوبية الله وعموم خلقه ورزقه على أنه لا يعبد سواه، ولذلك تعقب هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أو ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾، والمعنى متقارب بأنه: فكيف يُصرفون بعد هذا الإقرار عن عبادة الله تعالى وحده إلى عبادة ما سواه؛ معه أو من دونه؟.

أو تعقب بقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني: فتتركون الشرك لما علمتم من الحجة من شهادتكم وعلمكم وفطرتكم.

أو بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يعني: تتقون الشرك.

أو بقوله تعالى: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ ، وهذا التعبير تستخدمه العرب في ذهاب العقل يعني أنه من سُحر فجن، وبهذا كانوا يتهمون الأنبياء بقولهم - كما اتهموا صالحًا: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾، على الوجه الراجح من وجهي تأويلها.

فيسألهم ربنا سبحانه بعد تقريرهم بربوبيته هذا السؤال .. يعني أين ذهبت عقولكم حتى تقروا بخلقه لكم ورزقه إياكم وبعموم ملكه ثم تعبدون غيره وتشركون معه في حقه الخالص من العبادة سواه؟.

* * *

وبالنظر نجد الاحتجاج يدور حول:

١- الخلق والإيجاد من العدم والملك التام.

٢- الرزق والقيومية على خلقه.

٣- الرجوع لرب العالمين للحساب.

وتُذكر هذه الأمور إما إجمالاً وإما بتفصيل .. وأحيانًا يفرد سبحانه الاستدلال بأحدها فقط كالخلق فقط أو الملك فقط أو الرزق فقط أو الرجوع لله تعالى فقط.

وأحيانًا تجمع الآيات بين أكثر من وجه من أوجه هذه الاستدلالات، فتجمع بعض الآيات بين الخلق والرزق أو الخلق والملك أو الخلق ونفي الملك عن غيره أو الخلق والرجوع إلى الله تعالى أو غير ذلك وهذا تفصيلها:

١- الاحتجاج بأنه الخالق، وتذكر الآيات الخلق إما:

أ- **إجمالاً:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، يعني: فكيف تُصرفون عن عبادته إلى عبادة من سواه، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

ب- **أو على وجه التفصيل،** فيفصل بعض خلقه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ذِكْرُ سبب الحمد في مثل هذه الآيات:

والحمد هنا لظهورك بالحجة عليهم وإلزامهم إياها، وللتعريض بحمده لربه أنه ليس مثلهم وأنه عُصِم من هذه الضلالة، يقول البيضاوي: «﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذاعته: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم»[(١)].

ويقول في آية مشابهة في موضع آخر: «﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، على ما عصمك من مثل هذه الضلالة أو على تصديقك وإظهار حجتك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فيتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به الصنم، وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم»[(٢)].

أمثلة على الإحتجاج بالخلق لإفراده تعالى بالعبادة:

في سورة غافر:

وانظر إلى هذه الآيات التي تفصّل خلق الله للكون وللإنسان وتطالبنا بإفراده بالألوهية والعبادة ثم تأمر رسول الله بإعلان هذا التوحيد والإسلام .. فهي في غاية الوضوح.

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٣٥٠.
(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٢٢.

يقول تعالى في سورة غافر: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، ثم يربط بين الخلق وبين إفراده بالألوهية والعبادة فيقول: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [غافر: ٦١-٦٣]، ويؤفك يعني يُصرف عن توحيد ربه وعبادته.

ثم يذكر جملة أخرى من الخلق فيقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ثم يقول بعدها: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وبناء على هذا يأمر نبيه بهذا الإعلان بالتوحيد والإسلام: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ثم يذكر جملة أخرى من تفصيل خلقه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٤-٦٨].

ثم ينعى على المشركين جانبي الشرك عندهم؛ جانب الخبر وجانب العمل، فينعى عليهم:

أولاً: تكذيبهم وجدالهم.

ثانيًا: شركهم في العبادة.

فيقول تعالى في شأن التكذيب: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾، ثم يقول في شأن الشرك العملي في العبادة: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٩ - ٧٤].

مثال آخر في سورة الأنعام:

وانظر إلى آيات الأنعام: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾، يعني: تُصرفون عن عبادته ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾، فيعرفوا الغاية من الخلق والغاية من هذا التفصيل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥- ٩٩].

ثم ينعى عليهم الشرك في العبادة ثم الشرك في وصف رب العالمين باتخاذ الولد سواء من العرب الذين اعتقدوا أن الملائكة بنات الله أو من النصارى الذين اعتقدوا بنوة المسيح: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ

وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، ثم يربط تعالى بين تفرده بالخلق وتفرده بالألوهية بموجب هذا فيقول على وجه العموم: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٢].

- وفي موطن آخر في الأنعام يربط سبحانه بين تفرده بالخلق وبين تفرده بالطاعة وينعى على المشركين شركهم به في التشريع والتحليل والتحريم فيقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فالله هو الذي ﴿ذَرَأَ﴾ الحرث والأنعام بلا شريك في خلقه لهم، فكيف يكون لسواه نصيب وله سبحانه نصيب؟!.

مثال ثالث في سورة الأنعام أيضًا:

وفي تفصيل أكثر يقول تعالى في نفس الشأن وفي نفس السورة: ﴿ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١ - ١٤٤].

فالذي أنشأ الجنات المعروشات .. بيد البشر، وغير المعروشات .. فلم يتدخل فيها أحد، والذي أنشأ الأنعام الحمولة منها .. عالية الظهر المرتفعة كالخيل والإبل، والفَرْش .. القريبة من الأرض كالغنم والمعز .. الذي أنشأ هذا وذاك هو رب العالمين .. وبالتالي فهو الذي يملك حق الأمر والنهي والتحليل والتحريم، وله على خلقه حق الطاعة وأن يُفرَد بها سبحانه وتعالى .. فلا يتلقوا تشريعًا ولا قانونًا في أي شأن من الشئون من غيره سبحانه .. وهذا هو معنى النهي عن اتباع خطوات الشيطان في هذه الآيات..

وجميع المفسرين على أن خطوات الشيطان في هذا الموضع ليست في المعصية المجردة بل هو نهى عن اتباع خطواته في تحليل ما حرم أو تحريم ما أحل سواء على وجه التقرب له تعالى أو على غيره من الوجوه، وهو نفس تفسير آية البقرة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٦].

فمن تلقى من غيره ورضي شريعة غير شريعته فقد أشرك به سبحانه.

* * *

٢- أو تذكر الآيات ملك الله تعالى لكل شيء: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣]، فالتسبيح تنزيه عن الشرك سواء الشرك في العبادة أو الشرك في الاعتقاد: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١].

* * *

٣- أو تنفي الملك عن غيره لإبطال الشرك من جميع وجوهه ومبرراته:

حتى قال ابن القيم وغيره أن هذه الآية تقطع شجرة الشرك وعرقها من القلب، وهى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبا: ٢٢ - ٢٣].

يقول رحمه الله تعالى: «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده؛ فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه؛ فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاة وتجريدًا للتوحيد وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناولُ القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ويعود المعروف منكرًا والمنكر معروفًا والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانًا والله المستعان»[1].

* * *

(١) مدارج السالكين، جـ ١، ص ٣٤٤ - ٣٤٣.

٤- أو تجمع الآيات بين الخلق والملك، ونفي الملك عن غيره تعالى:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ۖ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٢ - ١٤].

وكل هذا في شأن شرك العبادة.

* * *

٥- أن يستدل بأنه إليه المرجع: ﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ [يونس: ١٠٤].

فذكر إفراده لله تعالى بالعبادة، وذكر موجب هذا أنه هو الذي يتوفى خلقه.

وذكر في سورة الزمر توفيه لخلقه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، ثم قال بعدها ناعيًا عليهم الشرك بالله الذي يملك توفيهم في كل منام الوفاة الصغرى، ثم الوفاة الكبرى بعد ذلك عند الموت: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢ - ٤٥].

واتخاذهم الشفعاء هو وجه شركهم فإنهم كانوا يتعبدون لأصنامهم على أنها صور لصالحين أو للملائكة لتشفع لهم بجاهها ـ هكذا يظنون ـ عند الله، وهذه هي الشفاعة الشركية التي نفاها القرآن، فإنهم تصوروها أنها شفاعة كشفاعة خواص الملوك عند الملوك بحيث يمكن لأحد أن يشفع عند الله تعالى بغير إذنه لمن لا يرضى ولغير الموحدين المخلصين .. فانظر بعد ذكره للتوفية الصغرى والكبرى يذكر شركهم به، بينما من يملك التوفية هو الذي تجب له العبادة.

* * *

٦- الإستدلال بأنه الخالق وإليه المرجع، يعني البداية والنهاية: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢]، ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤]، ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤].

* * *

٧- الإستدلال بأنه الرازق: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]، ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٣٦]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

فربط تعالى بين تفرده بالرزق ـ أو بالخلق والرزق ـ على تفرده بالألوهية. يعني: فلا يُعبد سواه.

٨- أو تجمع الآيات بين الرزق والملك: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يعني: الشرك فتتركوه، ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ يعني: عن عبادة الله وتوحيده، ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني: لا يوحدون الله ولا يفردونه بحقه الخاص جزاء على فسقهم فلم يروا هذه الأدلة بقلوبهم فعموا وصرفوا عنها.

* * *

٩- أو تجمع بين الخلق والرزق: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

* * *

١٠- الإستدلال بأنه الخالق والرازق وإليه المرجع فتجمع بين الأمور الثلاثة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠].

* * *

فهذه من أعظم مقاصد إيراد هذه الآيات.

فإن الرب هو الخالق الرازق المدبر القائم بشئون خلقه وإصلاح أحوالهم.

وأما الإله فهو الذي يتألهه قلبك حقًا كان ـ وهو الله ـ أو باطلاً ـ وهو ما دونه ـ ولهذا مع إقرار الإنسان بربوبية الله قد يتعلق قلبه بما سواه حتى بهواه:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣].

ولهذا كان إنكار المشركين لإفراد الله بالألوهية مع أنهم لم ينكروا ربوبيته لهم كما سبق، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

نظرة سريعة على عدة أمثلة لهذا المقصد ولهذا الاحتجاج

(الاحتجاج بخلق الله ورزقه وأن المرجع إليه على وجوب إفراده بالتأله والحب والطاعة والتعظيم)

١ - ولهذا يحتج الله عليهم في كل آية في سورة النمل:

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ ثم سأل سبحانه: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ ثم سألهم: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم سألهم: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ ثم يقررهم: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ثم يسألهم ويقررهم: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٤].

بمعنى أإله مع الله فعل هذا؟ أو أإله مع الله تعبدون؟.

يقول شيخ الإسلام: «أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع الله، ومن قال من المفسرين أن المراد هل مع الله إله آخر فقد غلط فإنهم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾، وقال تعالى عنهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾.

وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك الله في خلق السموات والأرض ولا خلق شيء بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾، وقال عن صاحب يس: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾، وقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾، فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره مُلك أو قسط من المُلك أو يكون عونًا لله ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾»[(١)].

ويقول الحافظ ابن كثير: «أي أإله مع الله يُعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضًا أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾، فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول لأن تقدير الجواب أنهم يقولون ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به، فيقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ ٧، ص ٧٦ - ٧٧]

(٢) أما قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠)=

٢- وانظر إلى مثل هذه الآيات في الاحتجاج البدهي الفطري: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ - ٤]، هكذا يحتج عليهم برزقه المادي والمعنوي لإفراده بالعبادة، فمعنى العبادة هنا ليس مجرد الأداء بل إفراده تعالى بها لأن على هذا كانت الخصومة والصراع بين رسول الله وقومه.

٣- ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، هذه هي العبادة بقبول الشرائع، ثم ذكر موجب ومبرر هذه الطاعة: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٠ - ١١].

٤- وانظر إلى تعليمه إيانا ربوبيته وملكه وألوهيته الحقة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [سورة الناس].

٥- وانظر إلى احتجاج إبراهيم عليه السلام في إعلان تحنفه وتركه للشرك وبراءته منه، ذكر توحيده لربه وذكر معه موجب هذا التوحيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فذكر توجيه وجهه لله وحده وأنه لن يشرك به شيئًا، وأن موجب هذا هو أن الله هو الذي فطر السماوات والأرض، وكان عليه السلام في هذا الاستدلال مناظرًا لقومه كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله، فكان هذا منه توجيهًا للاستدلال على التوحيد.

٦- وانظر إلى عرض آيات الخلق في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

سيق قبلها: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وأعقبت بعدها بالانحراف عن موجبها من التعبد لله وحده بالحب الخالص: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

= فهذا احتجاج عظيم وبيان لمدى جرم المشركين بانهم يواجهون ويعذبون من يعلن ربوبية الله ويلتزم موجبها من إفراده بالعبادة وبحقه الخالص. فهذا بيان لبشاعة موقف المشركين، وأنهم كأنهم يجحدون ربوبية الله لهم وخلقه لهم ورزقه إياهم. وعلى هذا أحد أوجه آية الواقعة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (الواقعة:٥٧)، فعبادتهم لغيره كأنهم يجحدون خلقه إياهم، بينما هم لا يجحدون هذا كما توضح هذا آيات أخرى كثيرة لكن لما عبدوا غيره فكأنهم جحدوا هذه الفطرة لأنهم لم يعملوا بموجبها، فهذا بيان لبشاعة الجريمة.

يقول الإمام البيضاوي: «﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه أو بالبعث فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة». تفسير البيضاوي جـ ١، ص ٢٨٩.

فإنه لا يُعبد إلا من خلق ورزق فإذا لم تؤدّ العبادة لمن انفرد بالخلق والملك والرزق فكأنك تجحد هذا، وعبادتك لغيره (حبًا أو تعظيمًا أو طاعة في تشريع أو ..) فكأنك جعلته خالقا رازقا أو أقررت له بهذا طالما أقررت له بحق من حقوق الله الخالصة في العمل والعبادة، وفي هذا آيات التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١).

يقول القرطبي و غيره: «قوله تعالى: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعاني: جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء». تفسير القرطبي جـ ٨، ص ١١٠.

لا أنهم يعتقدون أنهم خالقون أو رازقون، ولم يتنسكوا لهم، بل تعبدوا بالنسك للمسيح وأمه، أما في الأحبار والرهبان فإنما صرفوا لهم حق الطاعة فيما يشرعون فذكر في الآية نوعين من العبادة: النسك والطاعة في تشريع.

٧- وانظر إلى آيات سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾، أعقبت: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، والتسبيح تنزيه عن الشرك وعن ما لا يليق من الوصف كأن يكون خلق الخلق سدى بلا حكمة، ثم أعقبوا تنزيههم لربهم قيامهم بالتوجه إليه بالتوحيد والإيمان: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٣].

فكان الدافع لهذا الإيمان هو هذا التفكر في خلق رب العالمين ..

* * *

٨- وانظر إلى معرفة الهدهد بموجب التعبد فأورد صفات لرب العالمين وأفعال لربوبيته تقتضي وجوب إفراده بالعبادة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

* * *

٩- وجاء في السنة هذا المأخذ الفطري في الاستدلال..

فقد روى مسلم في صحيحه حديث ضمام بن ثعلبة الخشنى قال الإمام مسلم: حدثني عمرو بن محمد بن بكير الناقد حدثنا هاشم بن القاسم أبو النضر حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: «صدق»، قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟. قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا. قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا. قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً. قال: «صدق»، قال: ثم ولى. قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة»[1].

فكان استدلال ضمام رضي الله عنه بأن الله خالق السماء والأرض والجبال وبالتالي فيعبد وحده ويصدق رسوله ويتبع.

* * *

(١) صحيح مسلم، جـ ١، ص ٤١.

استعراض سورة النحل لتتبع هذا المقصد

الاستدلال بربوبية الله وخلقه ورزقه على ألوهيته وحده

ووجوب إفراده تعالى بحقه الخالص في العبادة من الحب والطاعة والتعظيم

وأن سياق السورة كله فيه من خلال عرضها لآيات الخلق والكون .. ولم تترك هذا المقصد لكن تنوعت طريقة عرضه وتعددت مجالات عرضه فيما خلقه الله تعالى من أصول النعم في أول السورة ثم تمامها في بقيتها .. وكل مرة تعرض فيها هذه القضية تبلغ من الروعة كأنها لأول مرة تُعرض فيها.

وهى تسمى سورة النعم، وهي تعرض نعم الله تعالى وتفصلها على خلقه ليطالَب الخلق بموجَب الإقرار بهذه النعم ـ أصلها وتمامها ـ وبقيوميته تعالى عليهم .. فعند استعراضها ترى أنه ما سيقت النعم وما ذُكّر الخلق بها إلا لمطالبتهم بإفراد الله تعالى وحده بالعبادة ..

والسورة كلها على صورة أمواج متلاحقة .. كل موجة تعرض جزءا من نعمه تعالى وخلقه ورزقه ثم تعقبها بالأمر بالتوحيد أو النهى عن الشرك بصور مختلفة وكثيرة، ومن روعة القرآن أنك لا تشعر أبدا بالتكرار؛ فكل تناول للتوحيد العملي والعبادة كأنه جديد وكأنه لأول مرة يُطرق، ولْننظر إلى هذه الموجات على وجه العرض السريع المجمل للسورة الكريمة.

فتبدأ السورة بإعلان التوحيد وتنزيه رب العالمين عن ما أشرك به المشركون مع تهديد الخلق عن الانحراف عنه: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ١].

ثم تعرض جزءً من النعم في خلق الإنسان والحيوان والشجر وإنزال المطر وخلق البحر: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾، ثم يقول بعد هذه النعم: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٣-١٧].

ووجه التساؤل هنا أنه هل من خلق كمن لا يخلق في استحقاق العبادة والتفرد بها، من تعلق القلوب وخدمة الجوارح والانقياد بالطاعة؟، ثم يذكر علمه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النحل: ١٩].

ثم يعلق على شركهم ويوضح زيف ما اتخذوا من آلهة وعدم استحقاقهم العبادة بل هم مربوبون مخلوقون مثلهم، والكل عبيد رب العالمين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠].

ثم ينعي على المشركين عند موتهم، ويبكتهم يوم القيامة ويعلن تقريعهم وتوبيخهم: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٧-٢٩].

ويذكر الطيبين الذين قاموا بالتوحيد وحقوقه: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۖ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٠-٣٢].

ثم يذكر أحد حجج المشركين ويرد عليهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾، فيذكر أنهم فهموا أن الله تعالى شاء ما يفعلون ورضيه منهم لأنه لم يغيره عليهم بعذاب قدري ينزل عليهم .. فاحتج عليهم سبحانه بأنه إن لم ينكر عليهم قدرًا فقد أنكر عليهم شرعًا من خلال الرسالة، وكذلك قد أنكر على من قبلهم ـ ممن عُذبوا ـ نفسَ الجريمة ثم أنكر عليهم قدرًا بهلاك عام وعذاب استئصال حتى صاروا أحاديث ركبان، وهم يفعلون نفس الجريمة فليحذروا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٥- ٣٦].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهًا لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه قال الله تعالى رادًا عليهم شبهتهم: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه آكد النهي وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة رسولاً وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾، فيكف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾، فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل فلهذا قال: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾»[1].

ثم يذكر جملة من خلقه الساجد له الخائف من عظمته: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨-٥٠].

ثم يقول ناهيًا عن الشرك: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

ثم يذكر عموم نعمه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

ثم يذكر شرك الناس وعدم عملهم بموجب هذه النعم: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٤-٥٩].

ثم يذكر جملة من النعم: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٦٥-٧٢].

ثم ينعى على شرك الناس في مقابل النعم والرزق، ليُظهر قبح ما يواجهون به ربهم المنعِم والمتفضل عليهم والرازق لهم فيقول: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣].

ثم يضرب للناس الأمثال في شركهم فيضرب مثلاً لعجز آلهتهم وفقرها في مقابل الخالق الرازق الذي له الملك التام والفعال لما يريد فقال تعالى: ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٧٥٠].

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦].

ثم يذكر جملة أخرى من نعمه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾، ثم يطالبنا بموجب هذه النعم من التسليم له .. فيقول تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٧٨-٨١].

وهذا التسليم لا يكون إلا بقبول حكمه والإخلاص له بإفراده به وبعبادته؛ فالإسلام يتضمن معنيين:

١- الاستسلام لله، وهذا لا يتحقق إلا بقبول الأحكام منه سبحانه.

٢- الإخلاص له، بمعنى أن يكون هذا الاستسلام لله لا لغيره، فيكون مجموع المعنيين هو: (الاستسلام لله وحده) وذلك بقبول حكمه ورفض حكم وشرع من سواه، والتوجه بالتعبدات والنسك له وحده.

ثم ينعي عليهم جحودهم مرة أخرى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

ثم يقول عن مصير هذا الشرك .. من المشركين ومَن أشركوا بهم: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

ثم يذكر تعالى أمره بمكارم الأخلاق وهى من حقوق التوحيد وأخلاقيات لا إله إلا الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

ثم ينهى تعالى عن نقض العهود عمومًا، وخصوصًا في زمن الاستضعاف حتى لا يصدوا عن سبيل الله، وأعظم العهود العهد مع الله ومع نبيه بالإسلام والتوحيد فلا يرتد عنه، وبعض المفسرين يجعل هذا هو المقصود أساسًا بالآية بمعنى لا يحملنكم قلة عددكم أنتم المسلمون ـ كأمة ـ أمام المشركين الأكثر عددًا، وهذا معنى الآية: ﴿ أَن تَكُونَ ﴾ يعني بسبب كون ﴿ أُمَّةً ﴾ يعني: المشركين ﴿ أَرْبَىٰ ﴾ أكثر عددًا ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ وهم المسلمون القلة والمستضعفون في مكة، فلا يحملنكم هذا على نكث عهدكم مع رسوله بالإسلام والتوحيد خوفًا وانهزامًا أمام المشركين فتهلكوا من جانب وتتسببون في صد الناس عن هذا الدين لما يروا خروج من دخل فيه، أو تسنوا للناس سنة الارتداد عن هذا الدين.

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا

تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١-٩٦].

يقول النسفي[1]: « ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾، هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ ﴾ أيمان البيعة ﴿ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ بعد توثيقها باسم الله، وأكد ووكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل منها ﴿ وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا ﴾ شاهدًا ورقيبًا لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ من البر والحنث فيجازيكم به ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ في نقض الأيمان ﴿ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ﴾ كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد ان أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿ أَنكَٰثًا ﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فتله ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ ﴾ حال كأنكاثًا ﴿ دَخَلَۢا ﴾ أحد مفعولي تتخذ أي ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلاً بينكم أي مفسدة وخيانة ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش ﴿ هِيَ أَرۡبَىٰ ﴾ هي أزيد عددًا وأوفر مالاً ﴿ مِنۡ أُمَّةٍۚ ﴾ من جماعة المؤمنين، هي أربى: مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لأمة وأمة فاعل ﴿ تَكُونُ ﴾ وهي تامة وهي ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ ﴾ الضمير للمصدر أي إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب، وفيه تحذير عن مخالفة ملة الإسلام ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ حنيفة مسلمة ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ يوم القيامة فتجزون به ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيدًا عليهم وإظهار العظمة ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها وإنما وحدت القدم ونُكّرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه فكيف بأقدام كثيرة ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ ﴾ في الدنيا ﴿ بِمَا صَدَدتُّمۡ ﴾ بصدودكم عن سبيل الله وخروجكم عن الدين أو بصدكم غيركم لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ ﴾ ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ عرضًا من الدنيا يسيرًا، كان قومًا ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ فثبتهم الله ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ من أعراض الدنيا ﴿ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من خزائن رحمته ﴿ بَاقٖۗ ﴾ لا ينفد ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّ ﴾ وبالنون مكي وعاصم ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ ﴾ على أذى المشركين ومشاق الإسلام ﴿ أَجۡرَهُم

(١) قد أوردنا نص تفسيره لهذه الآيات لانطباقها على زماننا لاستضعاف الاسلام وأهله، واحتياجنا الشديد الى تدبرها.

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ مَن: مبهم يتناول النوعين إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم الموعد النوعين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط الإيمان لأن أعمال الكفار غير معتد بها» ا.هـ[1].

ثم يستطرد السياق في اتهامهم لرسول الله بالكذب على الله وافتراء الرسالة، وأوضح تعالى أن المفتري الكذب على الله هو من تمرس أولاً الكذب على خلقه، وأنتم تعلمون أنه أصدقكم، فمن يَدع الكذب على الناس، فتركه للكذب على الله تعالى أولى .. فهو حريّ بهذا، ثم بين أن الكاذب حقًا من ارتد عن هذا الدين .. فاستطرد السياق فيمن ارتد عن هذا الدين، وأن الردة عنه أعظم الكذب لأنهم يُضِمّنون ردتهم أنهم يشهدون لدين الله تعالى بالبطلان وأنهم لولا ذلك لما ارتدوا .. ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [النحل: ١٠٥-١٠٧].

وبعد ذلك يذكر مثال القرية المطمئنة كمثال لمن أنعم عليهم تعالى فقابلوا نعمه بالجحود والنكران:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

ثم يذكر الانحراف عن طاعته بالتعدي بالتحليل والتحريم وهو شرك أعظم لا يحق لأحد أن يمارسه من دون الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

ثم يذكر أن إبراهيم كان أمة ولم يك من المشركين .. معرّضا بهم وبشركهم: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

فكما رأينا مساق السورة الكريمة .. تذكر تفاصيل النعم وتعددها على الخلق ثم تلحف هذا التفصيل إما بطلب الخلق بموجَب الإنعام بعبادة الله تعالى وحده أو تبكتهم على شركهم وتنعاه عليهم؟.

* * *

وهكذا الآيات التي فيها خلق الإنسان والكون عمومًا، وكذلك التي فيها الرزق بكل أنواعه المعنوي من العلم والأمن ورفع الدرجة والجمال المبثوث، والرزق المادي بكل تفاصيله من طعام .. للسكن .. للدابة .. للسقيا .. لسائر النعم التي لا تُحصى .. وكذلك الآيات التي فيها المرجع لرب العالمين، بما فيها الوفاة الصغرى والوفاة الكبرى ..

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢].

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

---

(١) تفسير النسفي، جـ ٢، ص ٢٦٨ - ٢٧٠.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

فربوبية الله تعالى للسماوات والأرض توجب عبادته وحده، وغير هذا شطط وبعد عن الحق وعن موجب ما أقرت به الفطر والعقول ..

وانظر إلى أولى الألباب في سورة آل عمران .. تفكروا فآمنوا بربهم ووحدوه:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٣].

فساقهم تفكرهم إلى العلم بالآخرة .. والاستجابة للرسالة .. فالتفكر هو الذي ساقهم إلى ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ فهذا هو الذي مُدح في التفكر، ولذا مدحه الله تعالى في كتابه ..

وهكذا آيات الكون والخلق والرزق عمومًا ..

* * *

obeikandl.com

المقصد الثاني
التعرف على الخالق سبحانه

كان يمكن أن نضع هذا المقصد هو الأول لترتيب المعرفة ثم العبادة.. ولكن اخترنا تقديم العبادة جريًا على النسق القرآني أن هذه المعرفة مركوزة في الفطرة ويُطالب الناس بموجَبها، ثم كلما زادت المعرفة زاد الخضوع لله تعالى وزادت هيبته في النفوس وطاعته سبحانه وتعالى.

والقاعدة أن الله تعالى لا يعرف بذاته .. فلا يدرك كنه ذاته أحد، وإنما يعرف بأسمائه وصفاته وبمفعولاته .. فدعا سبحانه للتأمل والتفكر في كونه وفي خلقه لنا ولما حولنا لنزداد به علمًا.

وطالما أن المعرفة والإقرار بالربوبية يوجب خضوع القلب وتألهه لله تعالى فكلما زادت المعرفة بالله زاد تعظيم القلب وحبه وإخلاصه لله تعالى؛ فكلما كان القلب أعلم كان أخشع وكان أخشى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾، فهذه الآية جاءت عقب آيات يُعرض فيها الكون: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ - ٢٨]، وهذا هو المعنى المباشر للآية .. فإذا زادت المعرفة زادت الهيبة والتعظيم واستُبشع الخضوع لغير الله، فهذا المقصد غير المقصد الأول لكنهما متلازمان وهو مكمل له.

وانظر إلى فتية الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]، فجاء هذا التوحيد والإفراد لله بالعبادة والتأله عقب النظر في السماوات والأرض ـ هم رتبوا هذا على هذا كدليل له ـ وكلما صفا نظر العبد كلما زادت هذه المعرفة وبالتالي زاد خضوعه واستبشاعه للتوجه لغير الله وربط القلب بأي وسائط ..

والقاعدة عند أهل السنة أن كل كمال في المخلوق فإنما هو من الخالق؛ فالخالق أولى به على أكمل وجه وعلى النحو الذي يليق بجلاله تعالى بلا تمثيل ولا تشبيه بخلقه.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فإن كل ما يعلم ويقال يدخل في معرفة الله إذ لا موجود إلا وهو خلقه، وكل ما في المخلوقات من الصفات والأسماء والأقدار والأفعال فإنها شواهد ودلائل على ما لله سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ إذ كل كمال في المخلوقات فمن أثر كماله، وكل كمال ثبت لمخلوق فالخالق أحق به، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق أحق بتنزيهه عنه، وهذا على طريق كل طائفة واصطلاحها فهذا يقول كمال المعلول من كمال علته وهذا يقول كمال المصنوع المخلوق من كمال صانعه وخالقه»(١).

ويقول: «فإنه سبحانه قد خلق من هو حي سميع بصير متكلم عالم قادر متحرك فهو أولى بأن يكون كذلك فإن كل كمال في المخلوق المعلول فهو من كمال الخالق الذي يسمونه علة فَاعِلِيَّة»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ ٧، ص٥٦٩ - ٥٧٠.
(٢) المصدر السابق، جـ ٨، ص ٢١.

فإذا نظرت إلى الكون استدللت على الله تعالى؛ على وجوده لمن انحرفت فطرتهم من الملحدين، وعلى أسمائه وصفاته تعالى.

ـ الاستدلال على وجوده، وهذا خطاب للملحدين: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥ - ٣٦].

ـ الاستدلال على أسمائه وصفاته ومعرفته تعالى .. فإذا وجدت الخلق حولك وبدقة باهرة استلزم الإقرار بالخالق: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

واستلزم الإقرار بعلمه وبقدرته وبعظمته وبرحمته لأنك تلحظ هذا في خلقه، فهو خلق أمورًا لنا رفقًا بنا ورحمة لنا .. وتعرفت من الحكمة في المخلوقات على حكمته البالغة ..

واستدللت كذلك على قهره وملكه .. وعلى إحسانه وعلى جماله .. وعلى أنه خبير وأنه الحق ..

فوجوده حق والعبادة له هي الحق ولا يوصف إلا بما يليق من الصفات الحق في شأن ذي الجلال والإكرام.

فكلما وجدت هذا في المخلوقات استدللت به على أن الخالق أولى بهذا ـ من جانب ـ وأن ما فعله كان على وجه الإحسان والرحمة والكرم .. لذا مدح التفكر في كتاب الله تعالى .. لأن هذا مقصد أساسي لعرض آيات الكون.

* * *

وانظر إلى هذا الموضع في سورة الحج كيف كان الاستدلال بالخلق على أسماء الله تعالى وصفاته: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦١ - ٦٢].

فعلم من الآيات أن ما نرى مستلزم ـ مع غيره من الطرق ـ للمعرفة والإقرار بسمع الله تعالى وبصره وأنه حق، وأن عبادته وحده هي الحق، وأن ألوهية ما سواه باطلة، وأنه تعالى عليّ ومتعالٍ عن كل ما لا يليق بجلاله من الوصف ومن عبادة غيره سبحانه، وأنه تعالى الكبير ..

فهذه لوازم النظر والتفكر في أحد مظاهر خلقه تعالى من ظاهرة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل بمعنى:

ـ أن هذا يغشى ذاك عند قدومه.

ـ أو أنه تعالى يأخذ من طول هذا لذاك في الشتاء والصيف فتارة يطول هذا وأخرى يقصر والآخر كذلك.

* * *

وانظر إلى آيات سورة لقمان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان: ٢٩ - ٣٠]، فتنص الآيات على أن النظر في هذه الظاهرة، وفي تسخير الشمس والقمر يستلزم الإقرار بأن من خلق هذا خبير، وأنه حق، ودعاء وعبادة ما دونه باطلة، وأنه عليٌّ عن ما لا يليق من الوصف ومن الظن وعن الشرك، وأنه الكبير.

* * *

وانظر في آيات سورة الرعد: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٨ - ٩]، فجريان الأمور في الأرحام على قدر وحكمة وتخليق الإنسان هناك بدقة باهرة وصنع عجيب تستلزم أن يكون من خلق عالمًا للغيب والشهادة، وتستلزم المعرفة والإقرار بأن الله تعالى هو عالم الغيب كما هو عالم الشهادة، وأنه الكبير والمتعالي عن كل ما لا يليق من الوصف ومن الظن ومن الشرك .. وهذه هي الجرائم الكبرى من الخلق تجاه ملك الملوك .. جلّت قدرته.

وهذا أمر فطري كما قال بعض الأعراب لما سُئل من بعض الناس ما الدليل على وجود الله تعالى؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير؛ فأرض ذات فجاج وأنهار، وسماء ذات أقمار، ألا تدل على الله الواحد القهار؟.

وهذا لسلامة فطرته .. وبهذا جاءت الرسل مقررة ومكملة للفطرة.

* * *

المقصد الثالث
الاستدلال على اليوم الآخر

فكثيرًا ما تأتي آيات يعرض فيها خلق الله في الكون ردًا على منكري البعث .. استدلالاً على وجوبه وصدق الرسل في إخبارهم بوقوعه .. وهذا الاستدلال جاء بعدة طرق في كتاب الله تعالى.

الطريقة الأولى: الاستدلال بخلق الإنسان أول مرة على إمكان إعادته .. .

فلماذا يشك في الإعادة؟ فليشك إذن في وجوده!.

فإذا كان وجوده مسبوقًا بعدم، فعلى البداهة فالوجود المسبوق بوجود سابق أَوْلى وأيسر وأهون .. هذا في عرفنا لكن المقدورات لله تعالى نسبتها واحدة ولهذا عندما يورد الله تعالى هذا السؤال من منكري البعث تأتي الإجابة هكذا بكل بدهية ووضوح:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾، فجاءت الإجابة: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾، فجاءت الإجابة هكذا: ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

والنسبة لله تعالى واحدة في شأن بداءة الخلق أو إعادته، ولهذا قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قالوا: في عرفكم وفي قياسكم.

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، فهما نشأتان: «فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لا يعجزه الإعادة فكأنه قال ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ»[(١)].

ويقول البغوي: «﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾، فانظروا إلى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أي: ثم الله الذي خلقها ينشئها نشأة ثانية بعد الموت فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءا لا يتعذر عليه إنشاؤها معيدا»[(٢)].

* * *

(١) تفسير النسفي، جـ ٣، ص ٢٥٥.
(٢) تفسير البغوي، جـ ١، ص ٢٣٧.

الطريقة الثانية: الاستدلال بإنزال الله الماء من السماء وإحياء الأرض به بالنبات وأن هذه عملية إحياء من الموت وعملية إعادة للحياة مستمرة دائمًا ومماثلة لما وعدتم به من البعث .. وهي أمام أعينكم كل لحظة فلم لا تعتبرون؟! ولم إذا تتعجبون من البعث؟!.

ولهذا يكرر عرض إحياء الأرض بالنبات بالماء النازل من السماء في كتاب الله تعالى ثم تعقب هكذا: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

وانظر إلى الآيات: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾، ثم قال بعدها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

* * *

الطريقة الثالثة: الاستدلال بخلق ما هو أَوْلَى وأعظم خلقًا من الإنسان ـ الذي يستعظمون بعثه ـ وهو خلق السماوات والأرض:

وقد نص القرآن أن خلقهما أعظم من خلقنا:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧].

وبالتالي ينص القرآن وينبه على أن الله خلق ما هو أعظم من الإنسان ولم يعي ولم يتعب ولم يكترث بخلقهما .. أفلا يقدر على خلق ما هو أقل منهما؟!.

ولذلك بعدما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، قال تعالى بعدها: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٧ - ٥٩]، فواضح أنها سيقت للاستدلال على الساعة.

وبعدما قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾، فصّل سبحانه خلقه للسماوات والأرض فقال: ﴿ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، ثم قال تعالى بعدها: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾، ثم أخبر تعالى بشناعة إنكار الظالمين للقائه بعد هذا الدليل الواضح، فقال: ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

* * *

الطريقة الرابعة: الاستدلال بالحكمة.

وذلك أن القول بعدم البعث هو قول بأن الله تعالى خلق الحياة عبثًا وسدىً وهباءً.

وهذا لا يليق برب العالمين .. هذه واحدة.

والثانية: أن الحكمة ملحوظة في كل جزء من الكون وفي كل ثناياه ـ فالعين في محلها بما يحفظها من أهداب ومحاجر وحاجبين .. والرِجْل لوظيفتها .. واليد والأصابع .. والخلايا وأنواعها .. والتوازن في الخلق في كل عالم من الحيوان والطير والديدان والحشرات والوحوش .. وبين العوالم وبعضها وبين السماء والأرض ..

وفي هذا الجانب كتبت أسفار تراجع خاصة في علم الأحياء والكيمياء وغيرها ..

فإن كانت الحكمة هكذا مبثوثة ومنطوية في كل ذرة وفي كل منعطف في هذه الحياة وفي الكون العريض وآفاقه .. فكيف يكون الوضع الكلي للحياة عبثًا بلا حكمة؟!.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وكيف يكون الغرض العام من الحياة والكون والخلق كله عبثًا بلا هدف؟.

وفي عالم البشر كم من ظالم مات ظالمًا لم يقتص منه، وكم من مظلوم مات بدمعه كمدًا لم ينتصف له فإن كانا يستويان فيلزم من هذا أن الظالم كالمظلوم، ومن كف عن الظلم سيستوي مع من أغرق فيه، ومن عف عن المحارم كمن انتهكها فيلزم من هذا أن الحياة عبثٌ وسُدى وبلا حكمة .. بل يلزم منها الإلحاد في وجود الله تعالى وإنكاره ..

هذا ما عده القرآن سبة لله تعالى، ونزه تعالى نفسه وقدسها عن هذا العبث وتعالى عن هذا الظن.

وانظر إلى هذه الآيات:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾، ثم نزه تعالى نفسه عن هذا فقال: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، فتعالى ربنا عن هذا العبث وتنزه عنه.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

فهو ظن سيء برب العالمين.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾، ثم أعقبت بتقرير الساعة: ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

ومعنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾:

«إلا ملتبسًا بالحق مراعيًا فيه مقتضى الحكمة البالغة»(١).

«إلا خلقا ملتبسًا بالحق لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزاحة فسادهم من الأرض»(٢).

«إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة أو البعث»(٣).

«إلا خلقًا ملتبسًا بالحق وهو ما تقتضيه الحكمة والمَعْدلة وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم والبعث للمجازاة على ما قررناه مرارا»(٤).

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣]، والسورة كلها في إنكار المشركين للبعث، والرد عليهم وتقريره.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦].

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٦-٨].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم: ٣١]، فهذا نص على أن خلقه لهما لهذا القصد، وهكذا ..

* * *

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١٨٥.
(٢) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣٨٠.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٦٣.
(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٧٦.

الطريقة الخامسة: تعداد ما خلقه الله تعالى في هذه الحياة على أنه نِعَم، وأن هذه النعم تستوجب الشكر، ثم هناك من يشكر ومن لا يشكر فكيف يستويان ..الشاكر والجاحد؟.

فلا بد أن يكون للمُنعِم جزاؤه لكل منهما .

وطالما هناك من أنعم وطالب بشكر هذه النعم فلابد من أنه يملك الجزاء على الوفاء وعلى عدمه. فعلى من يلحظ وجه النعمة أن يلحظ جانب الواجب المترتب عليها، وهذا الواجب لا تستقيم المطالبة به إلا بيوم يحاسب كلٌ على قيامه بالشكر أو عدم ذلك ..

يقول البيضاوي: «﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ والتمسوا من نعم الله، ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ المرجع فيسألكم من شكر ما أنعم عليكم»(١).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، يقول البيضاوي: «الذي ألهاكم، والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه و﴿ ٱلنَّعِيمِ ﴾ بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾، وقيل: يعمّان(٢) إذ كلٌ يُسأل عن شكره، وقيل الآية مخصوصة بالكفار»(٣).

* * *

الطريقة السادسة: الاستدلال بعموم القدرة المستدَل عليه من النظر في خلقه تعالى وقدرته الباهرة في خلقه ..

فيذكر طلاقة قدرته التي لا تتوقف على شيء إلا مجرد إرادته تعالى ولهذا يشير إلى هذا مع الطرق الأخرى.

وهذا واضح في آخر سورة يس: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾، فرد عليه:

١- بدليل بداية الخلق: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

٢- ثم أعقبه بإيراد خلقه تعالى ما هو أولى وأعظم: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

٣- ثم نص على عموم قدرته: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٧٧ - ٨٢].

وكذلك في سورة النحل:

فقد حكى الله تعالى عن المشركين أنهم أقسموا أن لا بعث فقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾. وكانت الإجابة:

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٣٦٤.
(٢) أي المؤمن والكافر.
(٣) المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٢٤.

أولاً: بإثبات الحقيقة ولو أنكروها وأنها من موعود الله تعالى الذي لا محالة من تحققه ولا التفات إلى أقوالهم التي تلقى على عواهنها بلا دليل، بل ظنٌ وتخرصٌ ومكابرةٌ، فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثانيًا: الاستدلال على البعث بدليل الحكمة التي ذكر تعالى بعض أوجهها وبعض أغراضها فقال تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾، فنص تعالى على بيان الحق في اختلافهم سواء في شأن البعث أو التوحيد والشرك أو النبوة والرسالة أو افترائهم في التشريع بل في جميع ما اختلفوا فيه.

ثالثًا: استدل تعالى بعموم القدرة فقال: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٣٩ - ٤٠].

* * *

الطريقة السابعة: الاستدلال بعموم العلم المستدَل عليه أيضا بهذا الخلق.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾، ثم أورد تعالى إنكارهم للبعث ورد عليهم بعموم علمه تعالى، ودليله ما يشاهدونه من الخلق واستقامته، فلو كان في علمه تعالى نقص ما ـ سبحانه ـ لما استقامت السماوات والأرض فلا وجه لما يستبعدونه من العلم باختلاط التراب المتحلل من الأجساد بتراب الأرض: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبا: ١ - ٣].

* * *

ولننظر الآن نظرة عامة إلى إيراد آيات الكون بهذه الطرق مجتمعة أو ببعضها أو بأحدها حسب السياق .. فيما يخص اليوم الآخر والاستدلال عليها به

ولكن أيضًا نشير هنا قبلها إلى قاعدتين هامتين:

القاعدة الأولى:

وهي أن هذا المقصد من إيراد آيات الكون للدلالة على اليوم الآخر بطرقه السالف ذكرها، تجتمع كثيرًا بالمقصد الأول وهو الاستدلال بربوبيته تعالى كدليل على ألوهيته وعلى طلب إفراده بالعبادة والطاعة والحب.

فهما صنوان .. الدعوة لإفراده تعالى بالعبادة مع الاستدلال على اليوم الآخر ..

وأحيانًا ينص على المقصدين معًا وأحيانًا متواليين وأحيانًا أحدهما قبل الآيات والآخر بعدها وذلك لاشتراكهما في الدلالة فهما المقصدان الغالبان في هذه الآيات الكريمة.

القاعدة الثانية:

وهي ملاحظة مهمة قبل أن نورد الآيات وهي أن القرآن لا يخاطب العقل فقط بالإقناع بل يخاطبه بالإقناع ويخاطب أيضًا القلب في نفس الوقت لاستجاشة مشاعره بالتهديد والتخويف لتكون هناك جدية في أخذ الموضوع وتناوله ..

فأمر البعث أمر جاد وعظيم فلا يناقش على سبيل الهزْء أو اللعب وإنما على محمل الجد ومعرفة واستشعار الخطر الذي يحيق بالإنسان بسببه عمومًا وإنكاره خصوصًا .. وكم ممن يسأل لا على وجه الجد بل عل سبيل الاستهزاء والسخرية، وقلبه غافل يحتاج إلى إيقاظ مع خطاب العقل بما يقنعه بأدلة لا تقبل المماراة أو الجدال لأنها بدهية وفطرية ..

ولو سيقت الأدلة ـ مهما كانت مقنعة ـ للاّعب الهازئ لما نفعته ولا أثرت فيه إلا بقيام الحجة عليه فقط والإعذار في شأنه ..

فالقرآن لا يقنع فقط بل يلحف الإقناع بالتهديد الذي قد لا يدرك البعض سبب وجوده أحيانًا قبل الدليل وأحيانًا بعد الدليل إلا إذا علم السبب السابق ذكره .. وأرجو تذكّر هذه القاعدة الملحوظة دائمًا.

* * *

المثال الأول: لنأخذ مثالا واضحًا جدًا في سورة الدخان .. يقول تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾، هذا إنكار للبعث لكنهم لم يكتفوا بالإنكار بل أتْبعوه بأنهم مستهزؤن بالأمر ويأخذون الموضوع مأخذ اللعب فقالوا: ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الدخان: ٣٤- ٣٦]، ولماذا يأتون اليوم[1] هل الأمر عبث، وهل هناك بعث قبل اليوم الذي حدده رب العالمين؟ وكيف يبعثون قبل استيفاء الخلق لمدة التكليف؟.

فلما كان الأمر بهذا الاستخفاف .. جاء الرد على خطوات:

١- التهديد اللائق باستهزائهم: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧]، وهو تعريض بهم بأنهم يجرمون كما فعل السابقون فليحذروا أن يحل بهم ما حل بهم.

٢- ثم أورد الدليل على البعث ببساطة وبداهة وبطريقة فطرية وضرورية: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، ومعنى بالحق: أي بالحق الثابت أو بالحكمة البالغة أو بجزاء كل نفس بما تسعى كما أسلفنا عبارات البيضاوي في تفسيره.

٣- ثم استأنف التخويف الأخروي الشديد فقال تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٠ - ٥٠]، فوقع الاستدلال بين تهديد بعذاب دنيوى وتهديد بعذاب أخروى وذلك لخطاب القلب والعقل معًا.

* * *

المثال الثاني: آيات الجاثية:

فقد بدأت الآيات بذكر إنكارهم للبعث مع استخفافهم بالأمر: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٤ - ٢٥].

وجاء الرد عليهم من وجهين:

أولاً: ما تضمنه كلامهم على ما يدل على بطلان هذا الكلام فإنهم قالوا: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾، وهذا اتهام بالعبث، وهذا لا يليق بالله تعالى، وكل فطرة تعرف هذا، وهذا الخلق من حولنا يدل على جدية الحياة لا عبثيتها.

---

(١) هذا وجه في التفسير والوجه الآخر أن يأتوا ليخبرونا بصدق نبوتك وإخبارك بالبعث، وكلاهما هزء ولعب لأن الأدلة متوافرة وبكثرة حاشدة، وكما يقول ابن كثير في هذا الموطن وما شابهه من اقتراحات المشركين: أنهم لم يسألوا استرشادًا بل عنادًا واستهزاءً.

ثانيًا: رد عليهم بدليل النشأة الأولى والإحياء الأول من العدم وجاء الأمر لا في صيغة الاحتجاج بل في صيغة الخبر لتيقن وقوعه وصدق الإخبار به فهو حقيقة فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وكما علمنا القاعدة السابق ذكرها فقد أُلحف الاستدلال بالوعظ والتخويف لإيقاظ قلوبهم، فالحجة المستقلة للعقل وحده قد لا تكفي البعض لغفلة قلبه فقال تعالى في تخويف طويل غالب على الترغيب: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجاثية: ٢٧ - ٣٧].

ففي «الدخان» قدّم التهديد الدنيوي ثم الاستدلال ثم التهديد الأخروي، وهنا قدّم الاستدلال ثم أعقبه بالتخويف الأخروي.

* * *

المثال الثالث: سورة ق:

فالسورة تبدأ بحكاية إنكارهم البعث وأورد شبهة لهم وهي اختلاط أجزاء الميت بالتراب وعدم تمييزها وعبَّروا عن هذا بلفظ: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾، ورد عليهم ردًا قاطعًا: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق: ٣- ٤]، وهو رد بعموم علمه تعالى وعدم النقص فيه بوجه من الوجوه.

ثم أورد طائفة من آياته في الخلق وهي الاستدلال على البعث ونص على ذلك: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨]، تبصرة: لمن لا يعلم منهم، وذكرى: لمن يعلم. ثم نص على الاستدلال فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: ١١]، وهذا فيما يخص إنزال الماء من السماء.

والآيات فيها استدلال:

١- بخلق ما هو أعظم: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾.

٢- وبالحكمة المنتشرة في خلقه.

٣- وباستحقاق الشكر لأنها نعم.

٤- وبإحياء الأرض بعد موتها.

٥- ثم استدل بعدها ببدء الخلق على إعادته فقال تعالى:

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥]، فهذه كلها أدلة.

وطبقًا للقاعدة الأولى المستقرأة من إلحاف الأدلة بالترهيب فقد أعقب هذه الأدلة بالوعيد الدنيوي بالتعريض بتكذيب من قبلهم مثل تكذيبهم فأخذهم العذاب: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٢ - ١٤]، ثم مشاهد الآخرة والتهديد بها وهي من أعظم مشاهد الوعيد فيما يخص المرء نفسه بالمراقبة ثم الموت ثم مشاهد القيامة الكبرى ثم في النار ثم الجنة ولذا كان يخطب بها النبي ﷺ الجمعة حتى حفظها بعض الصحابة أثناء خطبه بها، وفي خاتمة السورة ذِكْر للخروج الأعظم من القبور فالسورة كلها حزمة واحدة في أمر البعث، وكأنها جملة واحدة ..

ولا يظن أحد أن مقطع ذكر آيات الكون كأنه خارج موضوع البعث .. كأنه قطع السياق إلى موضوع آخر! ثم عاد إليه لما ذكر الموت .. كلا .. بل هذا استدلال، وهذا وعيد، لجدية المأخذ ولإيقاظ المشاعر وللخطاب القرآني المتميز الذي يجمع بين "خطاب عقلي مقنع وعميق التأثير على الوجدان في آن واحد"[1].

* * *

المثال الرابع: سورة الغاشية:

فسياق السورة كله عن اليوم الآخر مواجهًا للمشركين مبكتًا لهم على شركهم فجاءت السورة: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، ثم ذكر مصير الكفار: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ١-٧].

ثم ذكر مصير المؤمنين، وفصَّل تعالى في شأن نعيم الجنة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية: ٨-١٦]. ثم ذكر مقطعًا من آياته تعالى في الكون والخلق: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ثم أعقب بالتهديد وذكر المرجع: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

فهذا المقطع الذي يذكر خلق السموات والأرض والإبل والجبال سيق هنا لمقصدين:

أولاً: للاستدلال على اليوم الآخر من حيث:

١- خلق ما هو أَوْلى وأعظم خلقًا.

٢- ومن حيث أنها نعم يُطلب شكرها ويعاقب من جحد هذا وأخل به.

٣- الحكمة الملحوظة في كل خلق لما هيئ له.

---

(١) راجع كتاب الطريق إلى الجنة لفضيلة الشيخ عبد المجيد الشاذلي حفظه الله.

ثانيًا: للاستدلال على وجوب إفراده بالعبادة لأن هذه أدلة ربوبيته لطلب إفراده بالألوهية والتعبد، وهذا هو شكر النعم، فلا يتم شكرها إلا بعبادة الله تعالى وحده، فهذا أصل الشكر ومأخذه، وتحقيق الشكر يكون بالرجوع إلى الله تعالى ومرضاته في كل حال حسب الاستطاعة وبالعمل لحق الرب لا لحظ النفس.

وهذا إحسان يوجب الحب لمن أحسن به وأجاد.

فالمقصدان متلازمان (اليوم الآخر، وإفراد الله بالعبادة).

فهذه الجملة من عرض آيات الكون والخلق هنا لم تقطع السياق بل هي من صلب السياق وأساس فيه.

* * *

المثال الخامس: آيات سورة المؤمنون:

ولننظر في السياق جيدًا: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

وهنا لم يرد عليهم ردًا مباشرًا وقد يرى البعض أنه ليس هناك رد مباشر عليهم، بل هناك رد وهو الآيات التالية: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٢].

ولما كان هذا إنكارًا محضًا أتى بالاستدلال أولاً، أما الوعيد فجاء بعد ذلك.

وقد استدل بهذا السياق على الأمرين معًا هنا وحتى آخر السورة:

أولاً: اليوم الآخر والبعث، من باب:

١- خلق ما هو أعظم. ٢- والحكمة.

٣- وعموم قدرته تعالى وملكه.

ثانيًا: وجوب إفراده بالعبادة وحده دون شريك.

ولهذا: جاءت الآيات ردًا على إنكار البعث فهذا هو المقصد الأول.

ثم أعقبه ببيان وحدانيته تعالى ببيان:

أ- ربوبيته المطلقة ووصفه المنزه عن الولد وعن الشريك وهذا أحد شقي التوحيد فنزه نفسه عن الوصف الذي لا يليق، مع وجوب وصفه بما يليق فقال: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

ب- أعقبه ببيان الشق الثاني من التوحيد وهو وجوب إفراده بالألوهية ووجوب تعلق القلب به وحده وعبادته وحده والخضوع له وحده فقال: ﴿ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

---

(١) ولهذا استدل شيخا الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب بهذه الآيات على أنها احتجاج بإقرارهم بالربوبية على وجوب إفراده بالألوهية وإنكار شركهم معه غيره في باب العبادة والعمل.

ثم جاء الوعيد الطويل حتى نهاية السورة .. أولاً وعيد دنيوي: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٨].

ثم وعيد بالعذاب الأخروى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٨].

ثم ختمت السورة بدليل الحكمة للاستدلال على البعث فالسياق لم ينقطع حتى آخرها: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أكد على التوحيد ـ لتلازم الاستدلال كما قلنا بين اليوم الآخر والتوحيد فظلا مقترنين حتى آخر السورة ـ فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

* * *

المثال السادس: آيات سورة النمل:

بعد القصص المبارك جاءت الآيات:

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، لاستحقاقه هذا الحمد لذاته ولصفاته ولأفعاله ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩]، أي: لسلامة ما بلغوه عن الله تعالى من الصفات الحسنى ووصفه بما يليق ـ كما مدحهم في آخر الصافات: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ يعني: لسلامة ما بلغوه عن ربهم من الوصف الحق الحسن، ثم كانت الآيات المفصلة لخلقه ولرزقه ثم للمعاد: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٤].

كانت كل آية تختم بهذا السؤال: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي: أإله مع الله تعبدون؟.

أو أإله مع الله فعل هذا؟!.

فواضح أنها مساقة للقصد الأول: الاستدلال بربوبيته على وجوب إفراده بالتأله الذي هو التعبد من نسك ومن طاعة ومن حب وتعظيم.

لكن لأنها لها نفس وجه الاستدلال على الآخرة أوْرد بعدها إنكارهم للآخرة فقال: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ، ولم يردّ عليهم هنا باستدلال آخر، ذلك لأن الرد والاستدلال قد سبق في هذه الآيات الكريمات قبلها، ولهذا أعقب هذا الإنكار بالوعيد فقط فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٧- ٦٩]، وهذا تعريض بهم بأنهم بهذا الإنكار مجرمون، ولينظروا كيف فعل الله تعالى بالمجرمين قبلهم .. والمعتاد في سياق القرآن في أمر إنكار البعث اقتران الوعيد بالاستدلال، قد يتقدم أحدهما على الآخر لحكمة في السياق لكن يتلازمان في الأعم الغالب.

وهنا لم ينفرد الوعيد بل الاستدلال موجود فيما سبق مباشرة.

بل لو تأملت لوجدت الآيات بعدها تذكر مشاهد من الآخرة ودليلها من آيات الكون دون إيراد إنكارهم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾، ثم قال بعدها مستدلاً على هذا اليوم العظيم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٣ - ٨٦].

وهذا من باب:

١- النعم. ٢- والقدرة.

٣- وخلق ما هو أعظم. ٤- والحكمة.

ونص تعالى أن في هذه الآيات لقوم يؤمنون، وهذه بعضها.

* * *

المثال السابع: آيات سورة الأعراف:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، هذا كله في التوحيد، توحيد الألوهية ودليله من الربوبية، ثم ذكر دليل البعث بإحياء الأرض بالنبات فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٧- ٥٩].

فهكذا تجد التوحيد والبعث متلازمين في الاستدلال عليهما بآيات الكون والخلق.

* * *

المثال الثامن: آيات سورة يونس:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، والمقصود منها الأمران معًا.

فأولاً: كان هناك تقرير إفراده تعالى بالعبادة فقال: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢]، يعني: عن إفراده بالعبادة.

ثم أورد ذكر الآخر فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤].

لأنها متضمنة الاستدلال عليها من باب:

١- النعم التي يُطالَب بشكرها.

٢- خلق ما هو أَوْلى وأعظم من السماء والأرض.

٣- إخراج الحي من الميت كل لحظة من إحياء الأرض ومن ولادة الانسان.

٤- الحكمة بتدبير الأمر.

* * *

المثال التاسع: آيات سورة الحج:

بدأت سورة الحج بوعيد عظيم جدًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، ثم ذكر تعالى المجادل في آيات الله تعالى بغير علم ولا دليل ويتبع الشياطين في منهجه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ١- ٤]، ثم أعقب هذا باستدلال مباشر على البعث.

فوقع هذا المجادل المتبع للشيطان بين أمرين:

١- وعيد عظيم .. خطابًا لقلبه.

٢- ثم أُتبع بدليل باهر مقنع يحترم عقله ويخاطبه .. فماذا يبقى له؟.

والاستدلال المباشر جاء بهذه الطريقة الواضح فيها الرحمة والبيان للخلق وتوجيه تفكيرهم ونظرهم إلى طريقة الاستدلال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥- ٧].

وكان الاستدلال من وجهين:

١ - خلق هذا الإنسان لأول مرة .. فكيف يعجز مَن خَلَقه عن إعادته؟!..

٢ - دليل إحياء الأرض.

وكذلك يلاحظ أنه مع الاستدلال على البعث صاحبه أمران: معرفة الله والاستدلال على أسمائه وصفاته (أنه الحق وأنه المحيى وأنه القدير)، والاستدلال على حقه وحده في العبادة لأنه الحق في ذاته وفيما يجب له من الوصف ومن الحق الخالص الذي لو صرف لغيره لكان باطلاً.

* * *

المثال العاشر: آيات سورة الرعد:

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الرعد: ١-٥].

فلما ذكر تعالى خلقه للسماوات والأرض الأعظم والأشد خلقًا من الإنسان .. وكذلك تسخير الشمس والقمر ثم ذكر تعالى أن هذا بحكمة حيث أن كل هذا يجرى إلى أجل مسمى ..

ثم ذكر تعالى إحيائه للأرض بعد موتها وهى عملية إحياء مشابهة لإحياء الإنسان بعد موته، وفصَّل تعالى في بيان نِعَمه مع قدرته.

فوضح من هذا أنه تعالى عرض:

أولاً: خلق ما هو أشد خَلقا من خلق الإنسان.

ثانيًا: الحكمة فيما خلقه تعالى.

ثالثًا: إحياء الأرض بعد موتها.

رابعًا: عدد نعمه تعالى ليتوجب على الخلق الشكر ويتوجه عليهم الطلب بهذا ..

وبعد هذا البيان يكون العجب ممن ينكر البعث فيكون كأنه يهذي أو مجرد مكابر جاحد، وليس العجب ممن يقول بالبعث، فيذكر تعالى أن لو كان ثمة تعجب فالحقيق به والجدير شأنه به هو من استبعد الإحياء بعد الممات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، ثم هددهم تعالى لايقاظ قلوبهم كما خاطب عقولهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

obeikandi.com

المثال الحادي عشر: آيات سورة النبأ:

فقد بدأت السورة بهذا السؤال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ثم أعقبته بما يريده هؤلاء: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ثم بينت انهم مختلفون فيه رغم عظمته: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾.

والنبأ هنا هو: البعث، وهو القول الراجح، والقول الثاني: أنه صحة الرسالة.

لكن الراجح هو الأول (البعث) لأن السياق كله في السورة حوله.

وكانت الإجابة على تساؤلهم في شأن البعث على ثلاث خطوات:

الأولى: تهديد عـام .. وهو خطاب لقلوبهم لبيان أهمية ما يتكلمون في شأنه:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

الثانية: استدلال على صحة البعث، وهو خطاب موجه لعقولهم بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١-١٦].

وهذا استدلال:

١- بخلق ما هو أعظم وأشد خلقا، وهو خلْق السموات والأرض والجبال.

٢- بأن هذه نعم تستوجب الشكر، ومَن أنعَم لابد أن يجازي كلاً بعمله.

٣- بالحكمة من وراء كل هذا الخلق.

٤- بعملية الإحياء: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ وهي عملية مماثلة تمامًا لإحياء الآدميين بعد موتهم.

الخطوة الثالثة: خطاب ثاني لقلوبهم بمشاهد الآخرة قال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ١٧-٤٠].

* * *

إشارات هامة

الإشارة الأولى: الآيات التى تستدل على الآخرة ثلاثة أضرب:

مما يستفاد في هذا الشأن أن هناك ثلاثة أضرب من الآيات التي تستدل على الآخرة:

١- أغلب الآيات في الاستدلال على البعث كما مر بيانه وطرقه.

٢- لكن هناك آيات أخرى تقررهم كأنهم مقرون به .. لأنهم ملزمون بالإقرار به .. لأن وجودهم دليل وشاهد على البعث ولا مناص من الإقرار بوجودهم! فألزمهم بهذا. وهذا واضح جدًا من سياق سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]، وهم قد رأوا البداية ولكن لم يروا الإعادة لكن هذه شاهدة على تلك فهم محجوجون بها فلوضوح الأدلة وقوتها وإلزامهم بها فكأنهم رأوا الإعادة، وإلى هذا أشار قتادة[1].

٣- وهناك ضرب ثالث من الآيات تجعل البعث من آيات الله تعالى:

ففي سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٦].

كان آخرها: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، فجعل الإعادة من آياته التي يستدل بها على عظمته وقدرته فكما يستدل بأنه الذي خلق يستدل كذلك بالإعادة وهذا على أحد الوجهين في ﴿ثُمَّ﴾.

وقد سيقت عقب سرد آياته تعالى المفصلة في الكون والخلق.

وكذلك آية النمل: ﴿أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، فجعل الإعادة والبعث دليلاً على عظمته وربوبيته مع الاستدلال بالخلق والاستدلال بالرزق، وهذا على أحد الوجهين في الإعادة.

وقد سيقت في باب الاستدلال عليهم بما يقرون به لتقريرهم بحق الله الخالص في العبادة، ولم يلتفت إلى إنكارهم للإعادة.

---

(١) وفي الآية أوجه أخر: ١- أن قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ معطوف على محل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وليس على ﴿يُبْدِئُ﴾ الخلق فيكون إخبارا مستأنفا من الله تعالى. ٢- أن الإعادة المرئية هي في النبت كل عام من الإحياء المتجدد. ٣- فهذا الذي قلناه أنهم ملزمون بهذا وإن لم يروه فكأنهم رأوه وهو الذي أشار إليه قتادة.

وكذلك آية يونس: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [يونس: ٣٤]، فقد سيقت في باب الاستدلال على بطلان تألههم وتعبدهم لغير الله وتقرير حق الله الخالص في العبادة والطاعة ونفي الشركاء من دونه .. فواضح أنه استدل بها على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة .. فهنا إشارة إلى أنه من آيات الله تفرد الله تعالى بها.

فمرة يستدل على البعث، وهذا هو الغالب، وأخرى يستدل بتفرده به تعالى على إفراده بالعبادة، وهذا لشدة ظهور حجته ودلائله .. وأن الخلق ملزمون بالإقرار به كما يشهدون بوجودهم.

ولهذا قال مؤمن ياسين: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢]، ولم يستدل ـ رحمه الله ـ على البعث، بل استدل به على عبادته لله وحده .. ولهذا قال في الروم: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، ولم يستدل أيضًا هنا على البعث بل قرره أنه حقيقة تفرد الله تعالى بها كما تفرد بقدرته على الخلق الأول وبالتالي تحداهم أن آلهتهم المزعومة عريّة عن هذا فهي باطلة .. ولم يلتفت السياق إلى إنكارهم للبعث لوضوح دليله؛ فإنكارهم مكابرة.

فتبارك الله وتقدس اسمه وجلت حكمته ..

* * *

الاشارة الثانية: قيمة المؤمن في هذا الكون ونظامه:

كذلك مما يستفاد بيان قيمة المؤمن في خلق السماوات والأرض ..

فإن الله تعالى ذكر أنه خلق السماوات والأرض بالحق لمجازاة كل نفس بما عملت .. المؤمن والكافر .. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٥]، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩].

لكنه تعالى ذكر في بعض المواطن ما يبين قيمة هذه الحياة والبعث للمؤمن وكأن المقصود الأصلي هو مجازاته وأما الكافر فبالعرض، وهذا في موطنين:

في سورة يونس يقول تعالى معللاً إعادة الخلق بأنه لمجازاة المؤمنين: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ، فكان التعليل واقعًا على مجازاة المؤمنين ثم استأنف فذكر تعالى ما أعده للكافرين: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].

يقول البيضاوي: «﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد بدئه وإهلاكه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي: بعدله، أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو الأوجه، لمقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟

يَكْفُرُونَ ﴾، فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم لكنه غير النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب، والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة، والعقاب واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم والآية كالتعليل لقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾، فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ﴾ بالفتح أي: لأنه ويجوز أن يكون منصوبًا أو مرفوعًا بما نصب ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أو بما نصب ﴿حَقًّا﴾».

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبا: ٣-٥].

* * *

الاشارة الثالثة: ومن أجل هذه القيمة للمؤمن عُدّت مصيبة الموت في بعض سياقات الإنعام!.

فقد عُد الموت مصيبة: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [المائدة: ١٠٥]..

لكن عُدَّ في بعض المواضع في ضمن النعم للمؤمن: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

يقول البيضاوي في تفسيرها: «فإن قيل: كيف تعد الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وصلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾، كانت من النعم العظيمة مع أن المعدود عليهم نعمة هو المعنى المنتزع من القصة بأسرها»(١).

وفي سورة عبس يقول تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

يقول البيضاوي: «﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾، وعد الإماتة والإقبار في النعم لأن الإماتة وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية واللذات الخالصة».

* * *

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٢٦٧.

المقصد الرابع
معرفة تعبد الكون لله ومعرفته له وخضوعه

وبيان أصالة الحق فيستأنس به من يحمل الحق غريبًا بين العصاة .. ليظهر أن الحق أصيل وأن الباطل والانحراف طارئ وشاذ، ولا قرار له ولا قيمة وإن بدا منتفشًا.

هذا المقصد ذو أهمية، وهو منتشر في الآيات الكريمة وبالاستقراء يظهر هذا القصد جيدًا.

فقد عرض سبحانه وتعالى هذا الكون عارفًا بالله عابدًا له فقد أخبر عنه بأنه:

طائع: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

وأنه مُسبِّح: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأنه ساجد: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩].

وفى الحديث: عن أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس فقال: «يا أبا ذر تدري أين تذهب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عز وجل فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها ثم قرأ: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾»(١).

وأنه مُصلِّي: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وأنه قانت: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦]، ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦].

فهذه السياقات كلها تقرر أن الإقرار بربوبية الله وتأله كل ذرة في الوجود له وافتقارها إليه وانقيادها لأمره هو الأصل والمركوز في فطرة الوجود كله ..

فالانحراف عن دين الله والخروج عن عبوديته وشريعته والتعلق بسواه هو طارئ وشاذ ولا بقاء له.

فلا يستوحش مؤمن .. لا يستوحش سالك إلى ربه.

ولا يشك أحد في ظهور دين الله .. أو يتقبل أحد وسواسًا أو خطابًا منهزمًا أن الإسلام انتهى دوره أو لا أمل في قيامه وتمكينه.

فهذه الظنون كاذبة وهذا الخطاب كاذب لأنه يستلزم الجحود لله.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، جـ ٥، ص١٥٢، رقم ٢١٣٩٠، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فإن من شأن الله رب العالمين إحقاق الحق، لأن الحق هو الأصل في هذه الحياة وليس الباطل، وأن الله تعالى يدفع الباطل بالحق، وهذا من أدلة صدق رسله.

وانظر إلى هذا الرد على من قال بافتراء الرسالة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

فكان الرد أن من أدلة بطلان هذا الادعاء، ومن أدلة صدق هذه الرسالة هو إحقاقها، لأن من شأن الله تعالى إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإلا يلزم الجحود لوجوده تعالى[1]، فقال: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، فهذا شأنه تعالى، فانظروا هل سيكون الظهور والتمكين والعلو لما أرسل به محمدﷺ أو لما أنتم عليه من الباطل .. فلو كان محمد مبطلاً لمحى الله تعالى ما جاء به، ولو كنتم أنتم المبطلين فسيمحو الله تعالى ما أنتم عليه .. والمحق منكم ومنه سيحقه الله تعالى في الحياة بالنصر المادي، وإحقاق الرسالة بظهورها كما قال في الأنفال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

ولهذا يأمر الله تعالى **بالتربص**: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١].

وبالانتظار: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٣].

وبالترقب: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، مع الثقة في الله تعالى.

وهذا كله كما يُكسب المؤمن الثقة يُكسبه الأُنس وعدم الاستيحاش ..

* * *

(١) كما احتج ابن القيم رحمه الله تعالى على النصارى بتمكين الله تعالى المسلمين منهم قروناً متطاولة وأن هذا لصحة الرسالة وتأييد الله تعالى لها ولحملتها وإلا لزمكم أن الله تعالى يؤيد الباطل وينصره على الحق وهذا باطل أو يلزمكم جحود وإنكار وجوده تعالى، ونحن نستدل بهذا المأخذ على انتصار الإسلام وأن المستقبل له وأنه لن ينتهي من الأرض كما يتمنى جموع الكفار بل هو مشرف على دورة تمكين جديدة بإذن الله تعالى (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار).

المقصد الخامس
الإيناس في التعبد لله تعالى وسط كون زاخر ومشغول بالعبودية

وهو ملازم للمقصد السابق لكن آثرنا إفراده لتمييزه، فانظر في آيات الكتاب العزيز والتي تعرض الكون المسبح الخاشع والقانت والمطيع والمصلي .. فقد انفعل بهذا المؤمنون، فعرض ربنا سبحانه لحظات هامة في تاريخ البشرية كان المؤمن يتعبد مصطفًا بين الجبل والطير كل منهم يعبد الله، وهذه حقيقة موجودة .. كون الجميع يتعبد له تعالى .. لكن الرائع في هذا هو تجاوبهم في تسبيح وترجيع واحد يتفاعلون به معًا.

وهذا في قصة داود عليه السلام: ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

يقول الأستاذ سيد قطب: «وقد مضى في سورة البقرة بدء قصة داود، وظهوره في جيش طالوت، في بني إسرائيل - من بعد موسى - إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. فاختار لهم طالوت ملكاً. ولقي بهم عدوهم الجبار جالوت وجنوده. وقتل داود جالوت. وكان إذ ذاك فتى. ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى ولي الملك أخيرًا؛ وأصبح ذا سلطان. ولكنه كان أوابًا رجاعًا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار.

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلبًا ذاكرًا وصوتًا رخيمًا، يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه. وبلغ من قوة استغراقه في الذكر، ومن حسن حظه في الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون. وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير في صلتها كلها ببارئها، وتمجيدها له وعبادتها. فإذا الجبال تسبح معه، وإذا الطير مجموعة عليه، تسبح معه لمولاها ومولاه.

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ .. الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشي والإشراق، حينما يخلو إلى ربه، يرتل ترانيمه في تمجيده وذكره. والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده .. لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ إذ يخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان، وجنس الطير، وجنس الجبال!.

ولكن فيم الدهش؟ وفيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة.

وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات .. حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله: أحيائه وأشيائه جميعًا»[1].

ويقول: «وتهيم روحه في ظلال الله في هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء. فيحس ترجيعها، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه. وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة ص.

وحمده. ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .. إنما يفقهه من يتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات المتجهة كلها إلى الله»[١].

* * *

بعض ما ورد في السُنة من معرفة الكون لهذا الدين وتجاوبه معه .. وذِكر بعض دلالات النبوة:

فهكذا روي عن رسوله الكريم ﷺ .. فقد أورد ابن كثير في "الدلائل" تسبيح الحصى في كفه ﷺ، ثم في كف أبي بكر، ثم في كف عمر، والصحابة يسمعون تسبيحه ..

يقول رحمه الله: « قال الحافظ أبو بكر البيهقي أنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان أنا أحمد بن عبيد الصفار ثنا الكديمي ثنا قريش بن أنس ثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن رجل يقال له سويد ابن يزيد السلمي قال: سمعت أبا ذر يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته كنت رجلاً أتبع خلوات رسول الله ﷺ فرأيته يومًا جالسًا وحده، فاغتنمت خلوته، فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر فسلم عليه ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ ثم جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر ثم جاء عثمان فسلم وجلس عن يمين عمر..

وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات أو قال تسع حصيات فأخذهن في كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن فقال النبي ﷺ: «هذه خلافة النبوة»، قال البيهقي وكذلك رواه محمد بن يسار»ا.هـ[٢].

* * *

وروى البخاري عن أنس ﷺ قوله: "كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل".

قال البخاري حدثني محمد بن المثنى حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفًا كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء». فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حي على الطهور المبارك والبركة من الله». فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[٣].

* * *

ـ وانظر إلى تجاوب الكون مع هذا الدين:

فقد روى بعض التابعين أنه مر بغابة فوجد فيها قردًا وقردة قد زنيا، فاجتمعت القرود ورجمتهما بالحجارة.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة الأنبياء.
(٢) البداية والنهاية، جـ ٦، ص ١٣٢.
(٣) صحيح البخاري، جـ ٣، ص ١٣١٢.

ـ وانظر إلى حنين الجذع لكلام رسول الله وللذكر، فبكى بكاء الصبي حتى نزل رسول الله وضمه إليه حتى سكن قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في كتاب "الدلائل" من كتاب "البداية والنهاية"، باب "حنين الجذع شوقًا إلى رسول الله وشغفًا من فراقه" وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان.

الحديث الأول عن أبي بن كعب:

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله ـ حدثنا إبراهيم بن محمد قال أخبرني عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان النبي ﷺ يصلي إلى جذع نخلة إذ كان المسجد عريشًا وكان يخطب إلى ذلك الجذع. فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هل لك أن نجعل لك منبرًا تقوم عليه يوم الجمعة فتسمع الناس خطبتك. قال: «نعم»، فصنع له ثلاث درجات هن اللاتي على المنبر فلما صنع المنبر ووضع موضعه الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ بدا للنبي ﷺ أن يقوم على ذلك المنبر فيخطب عليه فمر إليه فلما جاوز ذلك الجذع الذي كان يخطب إليه خار حتى تصدع وانشق فنزل النبي ﷺ لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده ثم رجع إلى المنبر فلما هدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه فكان عنده حتى بلي وأكلته الأرضة وعاد رفاتًا. وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن زكريا بن عدي عن عبيد الله بن عمرو الرقي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل عن أبي بن كعب فذكره وعنده: فمسحه بيده حتى سكن ثم رجع إلى المنبر وكان إذا صلى صلى إليه والباقي مثله وقد رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن عبد الله الرقي عن عبيد الله بن عمرو الرقي به.

الحديث الثاني عن أنس بن مالك:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي ثنا أبو خيثمة ثنا عمرو بن يونس الحنفي ثنا عكرمة بن عمار ثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله كان يوم الجمعة يسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد يخطب الناس فجاءه رومي فقال: ألا أصنع لك شيئًا تقعد عليه كأنك قائم فصنع له منبرًا درجتان ويقعد على الثالثة فلما قعد نبي الله على المنبر خار كخوار الثور ارتج لخواره حزنا على رسول الله فنزل إليه رسول الله من المنبر فالتزمه وهو يخور فلما التزمه سكت ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو لم التزمه لما زال هكذا حتى يوم القيامة حزنا على رسول الله»، فأمر به رسول الله ﷺ فدفن وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن عمر بن يونس به وقال صحيح غريب من هذا الوجه.

طريق أخرى عن أنس:

قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ثنا هدبة ثنا حماد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه كان يخطب إلى جذع نخلة فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن فجاء رسول الله ﷺ حتى احتضنه فسكن وقال: «لو لم احتضنه لحن إلى يوم القيامة»، وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد عن بهز بن أسد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وعن حماد عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس به وهذا إسناد على شرط مسلم[1].

* * *

(١) البداية والنهاية، جـ ٦، ص ١٢٥ - ١٢٦.

ـ وانظر إلى إمساك الماء للعلاء بن الحضرمي بدعائه: (يا عليم يا حليم يا عليّ يا عظيم)، حتى مر بجيشه على الماء لملاقاة الفرس.

ـ وانظر إلى كون النار بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام .. ثم على أبي مسلم الخولاني صاحب رسول الله ﷺ.

ـ وانظر إلى الشمس تقف ليوشع بن نون[1] وهو يقول أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست عليهم ساعة حتى فتح لهم.

* * *

ـ وانظر إلى قصة الذئب الذي شهد بالرسالة لرسول الله لما تكلم لراعي غنم، يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ في "الدلائل" تحت هذه الترجمة: «قصة الذئب وشهادته بالرسالة:

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد ثنا القاسم بن الفضل الحداني عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقًا ساقه الله إليّ. فقال: يا عجبي ذئب يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر رسول الله ﷺ فنودي الصلاة جامعة ثم خرج فقال للراعي: «أخبرهم»، فأخبرهم فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الأنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»، وهذا إسناد على شرط الصحيح وقد صححه البيهقي ولم يروه إلا الترمذي من قوله: والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس إلى آخره عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن القاسم بن الفضل ثم قال وهذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث القاسم وهو ثقة مأمون عند أهل الحديث وثقه يحيى وابن مهدي[2].

طريق أخرى عن أبي سعيد الخدري:

قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان أنا شعيب حدثني عبد الله بن أبي حسين حدثني شهر أن أبا سعيد الخدري حدثه عن النبي ﷺ قال: بينا أعرابي في بعض نواحي المدينة في غنم له عدا عليه ذئب فأخذ شاة من غنمه فأدركه الأعرابي فاستنقذها منه وهجهجه فعانده الذئب يمشي ثم أقعى مستذفرًا بذنبه يخاطبه فقال: أخذت رزقًا رزقنيه الله. قال: واعجبا من ذئب مستذفر بذنبه يخاطبني. فقال: والله إن لتترك أعجب من ذلك. قال: وما أعجب من ذلك. قال: رسول الله ﷺ في النخلتين بين الحرتين يحدث الناس عن أنباء ما قد سبق وما يكون بعد ذلك. قال: فنعق الأعرابي بغنمه حتى ألجأها إلى بعض المدينة ثم مشى إلى النبي ﷺ حتى ضرب عليه بابه فلما صلى النبي ﷺ قال: «أين الأعرابي صاحب الغنم»، فقام الأعرابي. فقال له النبي

---

(١) نبي بعد موسى، وقيل أنه كان فتاه المذكور في قصة الخضر في سورة الكهف، نُبّيء بعد وفاة موسى عليه السلام .

(٢) قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١ / ١٩٠: قلت: وهذا سند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم غير القاسم هذا وهو ثقة اتفاقا، وأخرج له مسلم في المقدمة. والحديث أخرجه ابن حبان (٢١٠٩) والحاكم مفرقا (٤/٤٦٧،٤٦٧-٤٦٨) وقال: صحيح على شرط مسلم! ووافقه الذهبي!.

ﷺ: «حدث الناس بما سمعت وبما رأيت»، فحدث الأعرابي الناس بما رأى من الذئب وما سمع منه فقال النبي ﷺ: «عند ذلك صدق آيات تكون قبل الساعة والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يخرج أحدكم من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده»، وهذا على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

حديث أبي هريرة في ذلك:

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن أشعث بن عبد الملك عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى انتزعها منه. قال: فصعد الذئب على تل فأقعى فاستذفر. وقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله عز وجل انتزعته مني. فقال الرجل: لله إن رأيت كاليوم ذئبًا يتكلم. فقال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم وكان الرجل يهوديًا فجاء إلى النبي ﷺ فأسلم وخبره فصدقه النبي ﷺ ثم قال رسول الله: «إنها أمارة من أمارات بين يدي الساعة قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه بما أحدثه أهله بعده»، تفرد به أحمد وهو على شرط السنن ولم يخرجوه ولعل شهر بن حوشب قد سمعه من أبي سعيد وأبي هريرة أيضًا والله أعلم[1].

ـ وانظر إلى عشرات المواقف والقصص يتجاوب هذا الكون مع حملة هذا الدين.

* * *

(١) البداية والنهاية، جـ ٦، ص ١٤٣ - ١٤٤.

لكن هنا نقطة نختم بها بقصد التوازن:

برغم هذا، فهذا الكون له عبودية يؤديها، وهي دَوْرُه، فمع تسبيحه له دور لا يخرج عنه وهو التزامه بالقوانين الإلهية التي ألزمه الله بها: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣]، ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

وهذه القوانين جادة ليست هازلة .. وعلى المسلم أن يعرفها بالطرق التي فطرنا عليها وأمرنا بها فقد قال النبي ﷺ لأحد أصحابه: «إن الله تعالى يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس (الكيس العقل) فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»(١). وفي رواية المعجم: «إن الله عز وجل ليلوم على العجز فأنِل من نفسك الجهد، فإن غُلبت فقل: توكلت على الله أو حسبي الله ونعم الوكيل»(٢).

على المسلم التجربة والاكتشاف والمحاولة لتسخيره على وفق منهج رب العالمين.

ولابد من حمل المنهج الشرعي والتعامل الجاد مع الكون وقوانينه لامتلاك القوة، فالكتاب يهدي، والقوة تنصر: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١].

وإن فرط المسلمون في العلم أثموا، وإن فرطوا في القوة أثموا، لأن العلم والقوة فريضتان.

وقبلهما الإيمان والتوجه لله وحده، والطاعة لله وحده لأن تلقي التشريع من الله وحده، والحب والتعظيم له بلا شريك.

* * *

(١) سنن أبي داود، جـ ٢، ص ٣٣٧.
(٢) المعجم الكبير، جـ ٨، ص ٩٥.

كلمة أخيرة :

إن الله تعالى يعرض الكون في كتابه على النحو الذي أسلفنا:

ليتعرف العبد من النظر إليه على ربه وخالقه وعلى صفاته تعالى ..

وليكون حجة على وجوب تفرده تعالى بالألوهية والعبادة والطاعة والتشريع .. فيفرد الله تعالى بحقه الخالص.

وليكون حجة على أمر الآخرة وقيام الساعة فيوقن ويستعد ويعمل ويزهد فيما هاهنا.

وليعرف به أصالة الحق وامتداده .. فيوقن بما معه وأن الله تعالى ناصره.

وليأتنس به في عبادته لله تعالى.

هكذا يُعرض وهكذا يتلقاه المؤمن ..

أما مجرد الاستمتاع به في مشاهد الجمال للترويح عن النفس وحسْب .. أو للتغزل على مذهب العشاق .. والوقوف عند هذا الحد، فهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦ - ٧]، فهي قشرة ظاهرة لم يفهم سواها، ولم يفهم عمقها وما وراءها، فمهما سُمي فنانًا أو مبدعًا فهو هو .. لم يعلم إلا قشرة بسيطة جدًا، حتى وإن كان رقيق الطبع والحس، فهو يستوي مع غليظ الحس في نهم الدنيا لكن يختلفان في أوجه الاستمتاع .. فلم يزل: جاهلاً، ولا يعلم، ولم يزل يعلم ظاهرًا ولا يعلم الحقيقة .. طالما لم يعرف ربه ولم يؤد خالص حقه له ولم يصلح له حاله ولم يخَف الآخرة ويوقن بها ويغير حياته من أجلها ولم يعرف أصالة الحق ولم يأخذ دوره ومكانه في التعبد وسط هذه الجموع المصلية من الطير إلى الوحش إلى قطرة الندى إلى موج البحار إلى الحيتان في الأعماق إلى النجم إلى الشجر إلى الحصى .. إلى الملائكة الكرام.

إن الله تعالى يعرض في كتابه هذا الكون بجماله ويلفت أنظارنا للجمال:

فيأمرنا بالنظر إلى جمال الثمار والأزهار: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ويأمرنا بالنظر إلى جمال الألوان في الثمار وفي الدواب وفي الآدميين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ - ٢٨].

فالنظر فيه وفي جماله أمر مقصود شرعًا.

كذلك النظر إنما هو بطريقة فطرية وبديهية وبسيطة وسهلة ومباشرة كمثل هذه الآيات: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وليست طريقة سفسطة أو فلسفة ملتوية أو معقدة .. هذه البساطة مقصودة وأؤكد عليها بيانًا لطبيعة المأخذ ..

النظر إلى الكون وجماله وبهائه وبهذه الطريقة الفطرية يجب أن يؤدي إلى معرفة الله وعظمته وأن يعقبه التسبيح: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾، وهذا التسبيح يعني تنزيهه تعالى عن الشرك سواء في الوصف أو في العمل والعبادة، ويؤدي إلى معرفة الآخرة وتذكُر النهاية والاستعداد لها ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، فوقع الاستدلال بهذا النظر على عبادة الله والإيمان باليوم الآخر.

ويجب كذلك ألا يبقى التفكر والنظر في إطار الفكر فقط بل يجب أن **يتحول إلى عمل وواقع** .. وهو الإيمان: بالتصديق بالله تعالى وبخبره على ألسنة رسله، وبإفراده تعالى بالخضوع والطاعة: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾.

بل وواقع جاد جدًا لم يكتفوا فيه بصلاح نفوسهم بل قاوموا الانحراف والباطل وصبروا على تبعات ذلك: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

كل هذا من التفكر الصحيح الذي يؤدى إلى الذكر والعلم والرحيل للآخرة والعمل والإصلاح في الأرض .. ولنقرأ الآيات: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥].

هكذا يتفكر المؤمن .. يعلم بالله ويوقن بالآخرة فيعبد الله وحده ويصلح حياته وحياة الخلق، ويوقن بأصالة الحق الذي يحمله ويراه في فطرة الوجود وفطرة نفسه، ويأنس بهذا الوجود العابد المطيع الخاشع القانت المسبح المصلي فيتعبد لربه وسط زخم عابد لله تعالى ..

هكذا يتفكر المؤمن .. وهكذا يقرأ القرآن ..

نسأل الله تعالى أن يفتح علينا من فضله الكريم ..

وصل اللهم وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد

وعلى آله وصحبه وسلم . .